القسم الثانى

البريد فى مصر فى العصور القديمة والوسطى

البريد فى عصر الفراعنة

لما كانت مصر مهد أقدم المدنيات ، فانّ فيها دون سواها يتسع مجال البحث عن أقدم النظم البريدية . إذ من الطبيعى ، وقد قامت بها فى عهد الفراعنة حكومات منظمة ذات إدارات ومكاتب وموظفين ، وجيوش وأساطيل ، أن يتصل ملوكها بعمالهم فى الأقاليم وفى البلاد التى فتحوها ، وأن يربطهم بهؤلاء جميعا بريد منتظم يحمل اليهم أنباء رعاياهم ، وينقل أوامرهم الى العمال والحكام فى الأقاليم . وقد دلت الآثار ، فضلا عن ذلك ، على أن رسائل تبودلت بين فراعنة مصر وحكام الدول المجاورة التى كانت تربطهم بها صلات تجارية وسياسية .

وأول وثيقة جاء بها ذكر للبريد يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م) وهى وصية كاتب لولده يظهره فيها على أهمية صناعة الكتابة ، والمستقبل المجيد الذى ينتظر الكاتب فى وظائف الحكومة ، ويتحدث فيها عن بؤس أصحاب الحرف

والصناعات الأخرى ، مما ينطبق تماما على معنى الصور الساخرة التى وجدت فى بنى حسن ، فقد قال هذا الكاتب ضمن ما قال: "أما ساعى البريد فانه يحمل أثقالا فادحة ، ويكتب وصيته قبل أن ينطلق فى مهمته ، توقعا لما قد يصيبه من الوحوش والأسيويين[1]" . ولعل أقدم وأهم مجموعة وصلت إلينا من الرسائل "مجموعة رسائل تل العمارنة" المكتوبة بالخط المسمارى ، وهى فى الواقع عبارة عن سجل للمراسلات السياسية نقلها أمينوفيس الرابع (سنة ١٣٦٤ ق . م) ، من طيبة الى أخوتاتون "العمارنة" عاصمته الجديدة ، وقد تبودلت هذه الرسائل بين أمينوفيس الثالث والرابع (سنة ١٤٠٥ — ١٣٥٢ ق.م) وبين ملوك الحيثيين ، وأشور ، وبابل ، وقبرص ، وصقلية . وهى تثبت أن فراعنة مصر كانوا يستخدمون كتابا يجيدون اللغات المعروفة فى ذلك العهد .

ومن كل ذلك يستدل على أن الفراعنة قد نظموا بريدا داخليا وخارجيا ، ولكن ما نظام هذا البريد ؟ وهل كان قاصرا على نقل رسائل الفراعنة وعمالهم ؟ .... أم تعداها إلى رسائل الأفراد ؟؟ ذلك ما لا يستطاع القطع فيه برأى للافتقار إلى الوثائق والايضاحات ، ولكن المفهوم مما كتبه الباحثون ، أن الفراعنة كانوا يرسلون سعاة البريد الى خيتا والشام وكنعان والحبشة ، وأنه كان يتعين على هؤلاء السعاة ، أن يتقنوا لغات البلاد التى يحملون اليها الرسائل[2] .

---

(1) G. Hanotoux "Histoire de la Nation Egyptienne (11) P. 251"

(2) Wiedmann "Das Alte Egypten. P. 322."

أما الرسائل الرسمية الداخلية ، فكان لها بريد منظم وكان يتولى نقلها سعاة معروفون بالأمانة .

أما بريد الجمهور ، فلم يكن له نظام بذاته ، لأن الفراعنة لم ينشئوا إدارة للبريد بالمعنى الذى نفهمه ، بل كان الأغنياء يبعثون برسائلهم مع عبيدهم . وكان الفقراء ينتهزون مثل هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد [1] .

أكبر الظن أن قدماء المصريين لم يستخدموا فى نقل البريد غير سعاة القدم ، وأن هؤلاء السعاة كانوا يتبعون ضفتى النيل فى رواحهم وغدوهم فى داخلية البلاد ، ويسلكون إلى الخارج الطرق التى تسلكها القوافل والجيوش .

---

(1) Maspero "Memoire sur la correspondance chez les anciens égyptiens"

obeikandl.com

البريد فى عهد البطالسة

أجمع المؤرخون على أن الفرس كانوا أول من وضع نظاما للبريد فى بلادهم .

وقد غزا الفرس مصر فى القرن السادس قبل الميلاد، وربما أدخلوا اليها وقتئذ نظم البريد ، فوجد البطالسة فيما بعد نواة هـذه النظم ، وتعهدوها بالعناية والرعاية. إنما الذى نقطع بصحته ، هو أن البطالسة وضعوا لبريدهم نظاما إذا قيس بمـا هو متبع فى الوقت الحاضر، مع مراعاة الفوارق بين مستوى المدنيـة الآن ومستواها قبـل ثلاثة وعشرين قرنا ، تبين أنه بلغ أعظم مبلغ من الدقة والسرعة وضمان وصول المراسلات ، وتحديد مسئوليات عمال البريد .

ونحن إذ نطرى نظام البريد فى عهد البطالسة ، إنمـا نصدر عن يقين ، فإن فى متناول أيدينا وثيقتين على جانب عظيم من الأهمية : تبين إحداهما نظام البريد السريع لنقل رسائل الملك ووزيره الأكبر وموظفى الدولة ، وتبين الثانية نظام البريد البطىء الذى استخدم فى نقل البريد بين الموظفين فى داخلية البلاد .

فأما الوثيقة الأولى فهى ورقة بردى وجدت فى "الحيبة"، وظهر أنها جزء من سجل، كان يستعمله رئيس مكتب البريد فى بلد بالفيوم لقيد عدد المراسلات الصادرة والواردة من وإلى الملك ووزيره وكبار

الموظفين . وفى هذه الوثيقة التاريخية الهامة الدليل الكافى على انتظام البريد فى عهد البطالسة .

لم يذكر فى هذه الوثيقة تاريخ معين ، وإنما جاء بها ذكر رسائل وردت باسم وزير المالية (أبولونيوس) ، ولما كان قد تقرّر من مصادر أخرى أن هذا الوزير عاش فى المدة بين السنة السابعة والعشرين والسنة الثانية والثلاثين من حكم بطليموس فلادلفوس، فى القرن الثالث قبل الميلاد، فإن هذه الوثيقة لا بدّ أن تكون كتبت فى هذه الفترة .

وقد سجل رئيس مكتب البريد عدد الرسائل والملفات [1] التى صدرت أو وردت من وإلى الملك ووزير المالية وكبار الموظفين فى أيام متوالية . وذكر أمام كل إرسالية اسم الساعى الذى رافقها وساعة وصوله أو خروجه ، والطريق التى سلكها ، قبلى أو بحرى النيل ، ومن ذلك أمكن الاستدلال على أنه كان بمكتب البريد أربعة سعاة يتناوبون العمل : اثنان لنقل البريد شمالا، واثنان لنقله جنوبا . وأنه كانت تمرّ بالمكتب المذكور أربع إرساليات يوميا : الأولى صباحا فى الساعة السادسة، من قبلى إلى بحرى . والثانية ظهرا، من بحرى إلى قبلى . والثالثة والرابعة مساء، من بحرى إلى قبلى فى الساعة الخامسة، ومن قبلى إلى بحرى فى الساعة السادسة . وأن المدّة المقرّرة لنقل إرسالية البريد من هذا المكتب إلى المكتب الذى يليه كانت ست ساعات ذهابا ومثلها إيابا .

(١) كانت الخطابات الكبيرة تطوى طيا اسطوانيا ، أما الصغيرة فتطوى بالطريقة العادية .

وقد لوحظ أن الخطابات المرسلة إلى الملك لم يذكر بها غير اسمه ، وذلك دليل على أن موظفى البريد كانوا يعلمون محـــل وجوده حتى ولو غادر الاسكندرية فى سياحة . أما رسائل الملك إلى كبار رجال الدولة فى هوقيو بوليس أو طيبة، فكانت تذكر بها جهة الإرسال ، وأما الخطابات الأخرى التى لم تذكر بها الجهة ، فكان مفهوما أنهـا مرسلة إلى الاسكندرية ، وذلك بخلاف الخطابات المرسـلة إلى الجنوب ، فكان لابد فيها من ذكر اسم المرسل إليه وعنوانه .

ومما يستوقف النظر فى وثيقة "الحيبة" وجود اسم شخص لاصلة له بأعمال البريد، وقد ذكر أمام الاسم أن صاحبه دفع مبلغا من المـال، واستنتج الأستاذان (جرينفل وهنت) أن هـذا الرجل لم يكن من موظفى الحكومة وإلا لأرسل خطاباته بدون مقابل ،وأنه لم يدفع هذا المبلغ لنقل مراسلاته، لأن هذا البريد السريع كان خاصا بنقل رسائل الملك ووزير المـالية وكبار الموظفين ، وإذن لابد أن يكون الرجل قد دفع هذا المبلغ على سبيل "الغرامة" ، لأنه لم يقدّم لسعاة البريد الخيل والطعام ، فقد كان سعاة البريد السريع يستخدمون الجياد ، ومن المرجح أن إعداد الجياد كان فرضا لازما على أصحاب الإقطاعيات .

وحسبك دليلا على سرعة البريد المستعجل فى زمن البطالسة، أن خطابا أرسل إلى الاسكندرية من بلد فى الفيوم فبلغها بعد أربعة أيام .

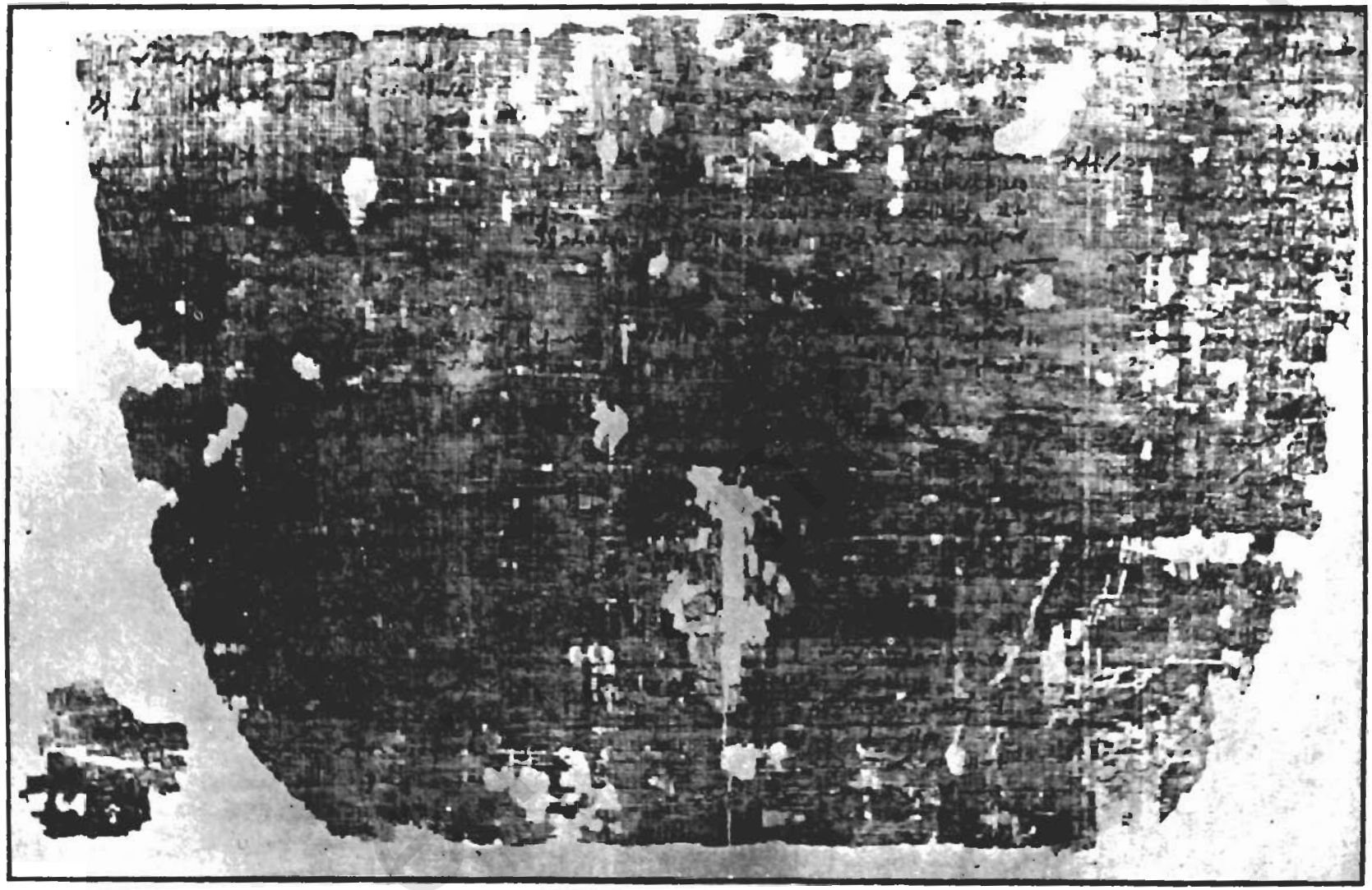

(صورة فوتوغرافية لوثيقة الحية "وجه")

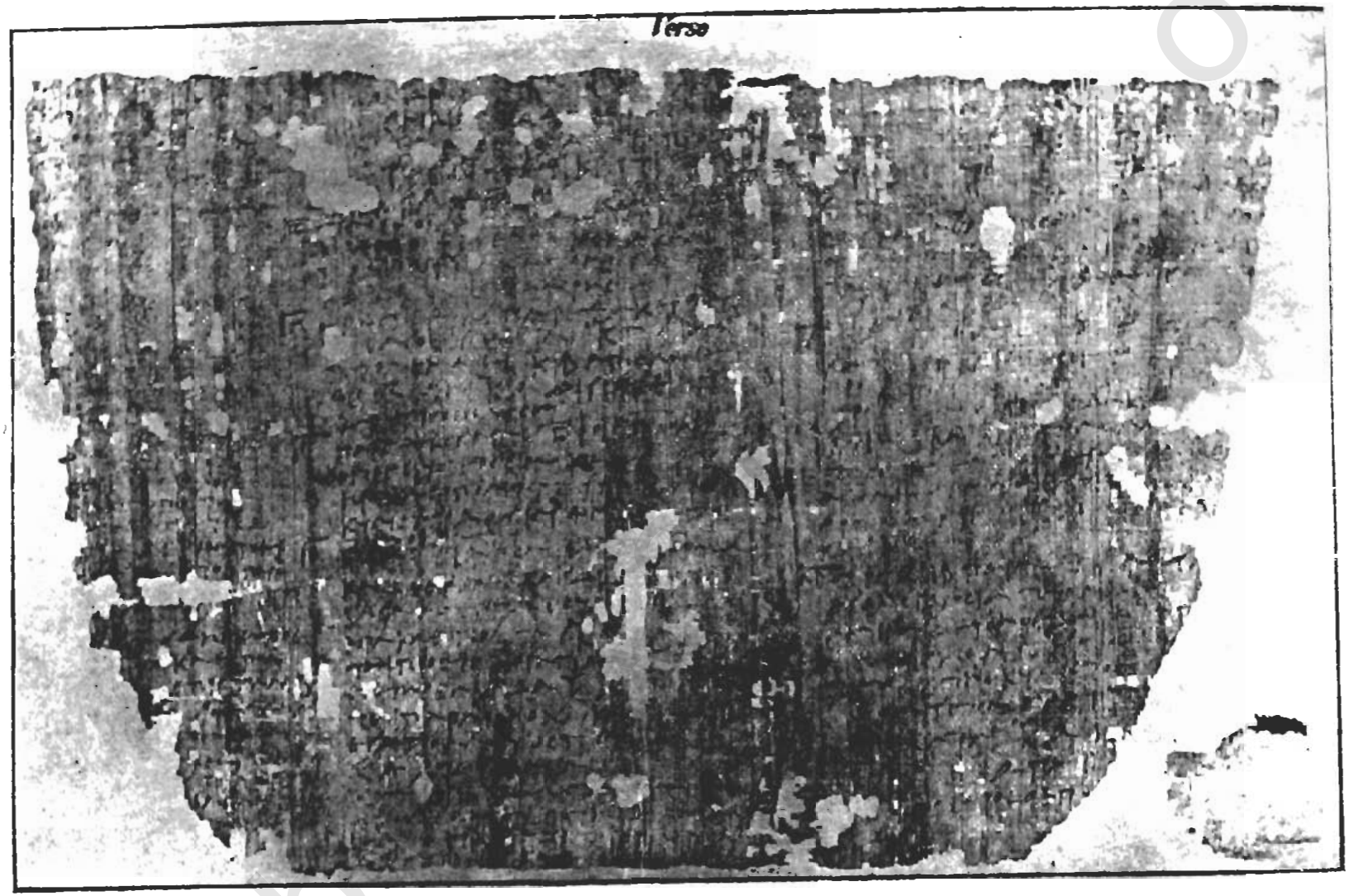

(صورة فوتوغرافية لوثيقة اخيبة " ظهر " . والوثيقة الأصلية محفوظة بمتحف برلين)

وليس يعقل أن تكون السفن قد استخدمت لنقل هذا البريد ، لأن السفن تسرع فى انحدارها مع التيار، وتبطئ فى صعودها الى الوجه القبلى ، وذلك لا يكفل السرعة والنظام اللذين اتصف بهما نقل البريد فى عهد البطالسة . واذا دلت هذه السرعة وهـذا النظام على شىء آخر، فعلى أن مكاتب البريد ومسالك السعـاة الراكبين كانت بعيدة عن ضفاف النيل بحيث لا يعطلها طغيانه فى زمن الفيضان .

لكن كل ذلك يستخلص أن البطالسة أنشأوا بريدا سريعا منتظما لنقل الرسائل الرسمية ، وأن مكاتب ومحاط البريد كانت منتشرة على طول الطرق بين المدن الهامة وحاضرة الدولة ، وأنه كان يوجد بكل مكتب عدد من السعاة الراكبين يتولون نقل البريد شمالا أو جنوبا عقب وصوله من المحطة السابقة أو اللاحقة ، وأن موظفا كبيرا فى كل مكتب كان يتولى قيـد الرسائل وساعات إرسالها أو ورودها وأسماء السعاة الذين رافقوا الإرساليات ، وأن أصحاب الإقطاعيات كانوا فى الغالب مكلفين بتقديم الجياد، وتسهيل عمل موظفى البريد .

بيد أننا نلاحظ من وثيقة الحيبة أن عدد المراسلات التى صدرت أو وردت من و إلى الملك ووزيره وكبار الموظفين بواسطة هذا البريد السريع، أقل بكثير مما ينتظر أن يكون عليه بريد رجالات دولة كبرى كدولة البطالسة ، و إزاء ذلك لا يسعنا إلا أن نسأل :

هل نظم البطالسة بريدا آخر بطيئا غير هذا البريد السريع ؟

وهل كانت هناك سجلات أخرى لقيد إرساليات البريد البطىء ؟

وجواب هذا السؤال تقدمه لنا الوثيقة الثانية المعروفة باسم بردى (Oxyrhynchos 710) . ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة ١١١ ق.م ومنها يستدل على أنه كان يوجد بمقاطعة (Oxyrhynchite) مكتب للبريد يعمل فيه رئيس و ٤٤ ساعيا وجمالا وشرطيا. فكان رئيس المكتب مكلفا بقيد المراسلات والاهتمام بالموظفين والدواب . أما

(صورة ورقة بردى — Oxyrhynchos 710 . وأصلها محفوظ بمتحف بروكسل)

الجمال فكان ينقل الطرود الثقيلة التى لا يستطيع نقلها سعاة القدم الأربعة والأربعون، ويحتمل أن تكون مهمة الشرطى قد اقتصرت

على مرافقة الجمال للمحافظة على الطرود ، ويغلب ان يكون هـذا البريد قد استخدم فى نقل المراسلات فى داخلية البلاد ، ومن حاضرة إحدى الإقطاعيات إلى حاضرة الإقطاعية الأخرى ، ولكننا لا نعلم هل كانت له مواعيد معينة أم كان السعاة المشاة يرسلون عند اللزوم ، كما أننا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن بريد الجمل ، وإن كان ذكر هذا البريد قـد ورد فى كثير من البردى الذى تخلف عن العهد الرومانى ، ولكننا نفهم من وجود جمل واحد فى مكاتب البريد أن الإرساليات كانت تنقل مرة فى اليوم على الأكثر .

ومما لا شك فيه أن القوم استعملوا السفن ضمنا لنقل الخطابات ، فقد كانت هـذه السفن تنقل الأشياء الثقيلة ، ولا سيما القمح بأمر الحكومة ، ومن المرجح أنها نقلت الخطابات الرسمية وغير الرسمية ، على أنه من الثـابت أن المراسـلات الخاصـة لم تكن تنقل بالبريد السريع على الأقل ، وأن الأهالى كانوا ينتهزون فرصة سفر أحد أقربائهم أو معارفهم الى بلد ما لينيطوا به نقل مراسلاتهم إلى ذلك البلد ، وهذا هو السبب فى أن أكثر الخطابات الخاصة التى يرجع تاريخها إلى عهد البطالسة ، كانت تستهل دائما بهذه الكلمات : "إننى أنتهز فرصة سفر فلان لأبعث معه بهذه الرسالة وأنبئكم بأن ..." (١)

(1) Wilcken — Grundzuge der Papyruskunde.
Schubart — Einfuhrung in die Papyruskunde.
Rostowtzew — Angariae; Klio VI.
Preisigke — Die Ptolemaische Staatpost; Klio VII.

البريد فى العصر الرومانى

استمر نقل البريد فى مصر بعد الفتح الرومانى ، إن لم يكن بالنظام الدقيق الذى وضعه البطالسة ، فبما يقرب منه على الأقل ، فالمعروف أن الرومان لم يغيروا كثيرا فى إدارة مصر الداخلية بعد أن أخضعوها لسلطانهم ، وأنهم فضلا عن ذلك قد عرفوا ما للبريد من أهمية سياسية وحربية وإدارية ، فعنوا بتنظيمه فى امبراطوريتهم المترامية الأطراف ، وعرف عندهم باسم (Cursus Publicus) ، وقد استخدم أباطرة الرومان المركبات لنقل البريد ، وأعدوا حظائر الجياد ومحاط الراحة على طول الطرق الهامة ، لاستبدال الجياد والسعاة وتقديم الطعام ووسائل الراحة لمن يخول بتفويض خاص حق استعمال مركبات البريد من الحكام ورجال الدولة والجيش ، وبلغ البريد فى العصر الرومانى أعظم مبلغ من الدقة فى عهد الامبراطور (ديوكلنسيان) الذى أقام المراقبين (Curiosi cursus publici) على عمال البريد ومحطاته ، وأجاز لهم إبلاغ المخالفات إلى رؤساء الشرطة أو إلى الامبراطور ذاته .

وكانت كل ولاية أو مقاطعة تقوم بإعداد الخيل والمحطات ، واستمر هذا النظام حتى قام أباطرة الدولة البيزنطية بإعادة تنظيم البريد ، فظهر البريد السريع (Cursus Velox) لنقل رسائل الدولة ، والبريد البطىء (Cursus Clabularis) لنقل الأشياء الثقيلة ، ثم انحط نظام البريد

(مركبات بريد فى عصر الرومان)

بالتدريج حتى ولى الحكم الامبراطور (جستنيان) ، فاستبدل الخيل بالحمير لعجز الولاة عن الإنفاق على خيل البريد ومحطاته .

وفى الوقت الذى أخذ فيه بريد الدولة فى الانحطاط والتدهور ، شرع كبار الملاك فى تنظيم بريد سريع لنقل مراسلاتهم الخاصة ، ويقول بعض الباحثين إن بريد النبلاء والملاك وضع أيضا فى خدمة الأهالى ، ولكن هذا القول يحتاج إلى الإثبات .

وقد تخلفت عن العهد البيزنطى وثيقة هامة من بريد الملاك والنبلاء هو عقد يرجع تاريخه إلى سنة ٥٥٠ ميلادية مبرم بين رجل يدعى (أوريليوس سيرينوس) من منظمى الاصطبلات، وبين نبيل من كبار الملاك فى "بهنسا" يدعى (فلاريوس سيرينوس) ، يتعهد فيه الأول بصفته "منظم اصطبلات الخيل للبريد السريع" بنقل مراسلات الثانى "لمدة سنة واحدة ابتداء من أول شهر با كون ، وذلك بكل سرعة وإخلاص وأمانة ، وبدون التورّط فى ذنب أو خطأ ، وبلا تأخير إلا فى حالة المرض ، على أن يكون الأجر ٨٠ كم من الحنطة وتسع قطع من الذهب و٢٤ كم من النبيذ . . . الخ" . ويقرّر أنه قبض سلفا نصف القطع الذهبية ويتعهد بألا يتخلى عن العمل طيلة المدة المتفق عليها ، وإذا فعل تعين أن يدفع ضعف المبلغ الذى قبضه سلفا ، وإذا طرد قبل نهاية السنة بلا مبرر حق له الحصول على مثل المبلغ الذى قبضه اولا .

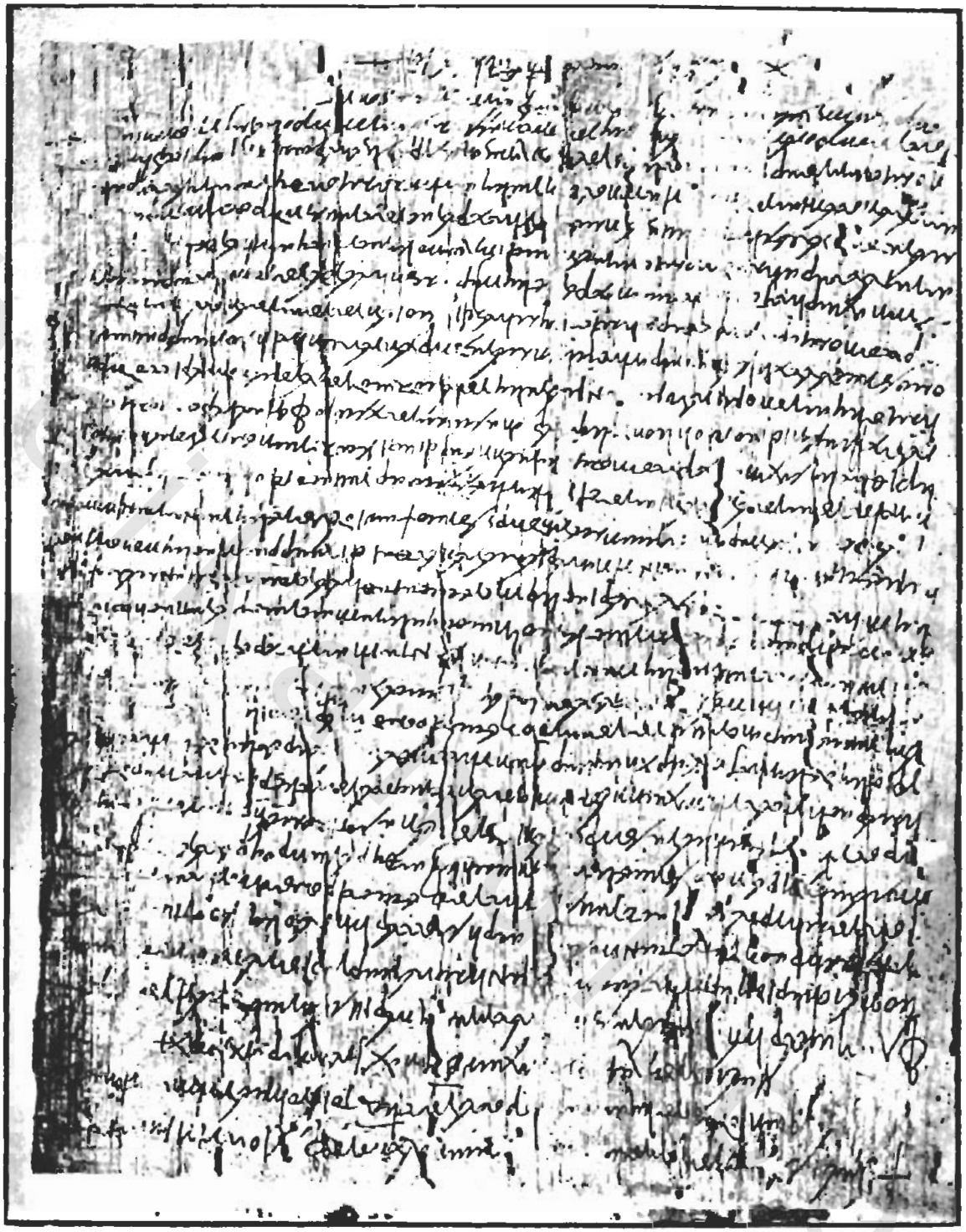

(صورة عقد نقل بريد أحد كبار الملاك ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٥٠ م والعقد الأصلي بالمتحف المصري بالقاهرة)

البريد فى العصر العربى

إن كلمة "البريد"[1] المستعملة فى العربية، هى فى ذاتها دليل على أنّ العرب لم يستنبطوا نظام البريد، ولكنهم نقلوه عن الفرس أو اليونان، أو عنهما معا. فانهم اتصلوا فى توسعهم ببلاد الفرس حيث استقرّت نظم البريد كما ابتكرها (سيروس)، ثم اتصلوا باليونان فعرفوا نظم الـ (Cursus Publicus) كما استمرت فى عهد الدولة البيزنطية، ومن هؤلاء وأولئك تعلموا كيف يربطون أطراف الخلافة بشبكة من الخطوط البريدية، أهمها نفس الخطوط التى أنشأها الفرس فى العراق، والتى أنشأها الرومان فى أنحاء امبراطوريتهم العظيمة، واستعمل العرب البريد للأغراض التى استعمله فيها الفرس والرومان من قبل، أى لنقل بريد الدولة، والتجسس على أعمال الولاة ونقل الأخبار إلى الخليفة.

ويقال إن معاوية بن أبى سفيان، هو أول من نظم البريد فى الإسلام لتسرع إليه أخبار بلاده من أطرافها، وأنه استقدم لهذا الغرض رجالا من الفرس والروم.

---

(١) بريد كلمة فارسية معناها "مقطوع" و يقال إن الفرس استخدموا فى نقل البريد دواب مقطوعة الذنب مميزا لها عن غيرها، فسميت "بريد ذنب" ثم حذف العرب كلمة ذنب واقتصروا على لفظة "بريد" و يقال غير ذلك إن "بريد" مأخوذة من كلمة (Veredus) اللاتينية.

وكان مركز البريد فى مدينة العمرة، على مسيرة ثلاثة أيام من مكة المكرمة . على أن تقارير عمال البريد عن أحوال الولايات كانت ترسل إلى الخليفة فى دمشق أو بغداد . وكان يتفرّع من بغداد ستة طرق للبريد قسمت إلى محطات تبعد كل منها عن الأخرى أربعة فراسخ أو مسيرة يوم. وقدّر بعض المؤرخين عدد هذه المحطات بتسعمائة وتسع وخمسين وضعت بها الجياد لنقل الرسائل المستعجلة ، أما الرسائل العادية . فكانت تنقلها الإبل تارة والسعاة المشاة تارة ، وأما رسائل الأفراد فكانت تنقل خلسة مع رسائل الدولة فى بعض الأحيان .

وذكر المؤرخ العربى أبو الفداء عن سرعة البريد "فى العصر العربى" ما يدل على أنها كانت تعادل وربما تجاوز سرعة البريد السريع (Cursus Velox) فى العصر البيزنطى .

وقد نسقت مصر، وهى جزء من الخلافة . على النظام الذى وضعه الخلفاء . وكانت أهم خطوطها البريدية هى الخط :

١ — من قلعة الجبل المحروسة إلى قوص، والبلاد التى يمر بها هى : الجيزة . زاوية أم حسين . ونا . دهروط . قلوسنا . منية بنى خصيب . الأشمونين . ذروة سريام . فم الخليج اليوسفى . منفلوط . أسيوط . طما . المراغة . بلسبورة . جرجا . البلينا ، هو ، الكوم الأحمر . دندرى . قوص .

٢ — من قوص إلى بلاد النوبة مارا بأسوان على الهجين .

٣ ــ أمكن قوص إلى سواكن مارا بكيمان ، قفط ، ليطه ، الدريج حميثره ، عيذاب ، بنى عامر ، سواكن .

٤ ــ أمكن القلعة إلى الاسكندرية عن طريق وردان مارا بالجيزة ، جزيرة القط ، وردان ، الطرانة ، طيلاس ، دمنهور ، لقينة ، الاسكندرية .

٥ ــ أمكن القاعة إلى الاسكندرية عن طريق قليوب مارا بقليوب ، منوف العليا ، المحلة الكبرى " قاعدة الغربية " ، النحريرية ، الاسكندرية .

٦ ــ أمكن القلعة إلى دمياط مارا بسرياقوس ، بئر البيضاء ، بابيس " قاعدة الشرقية " ، السعيدية ، أشمون الرمان ، المرناصية ، دمياط .

٧ ــ أمكن دمياط إلى غزة مارا بالخطارة ، قبر الوايلى ، الصالحية ، بئر غزى ، القصير ، الغرابى ، قطيا ، المطيلب ، السوادة ، الورادة ، العريش ، الخروبة ، الزعقة ، رفح ، السلفة ، بئر طرنطاى ، الجميزة ، الداروم ، غزة .

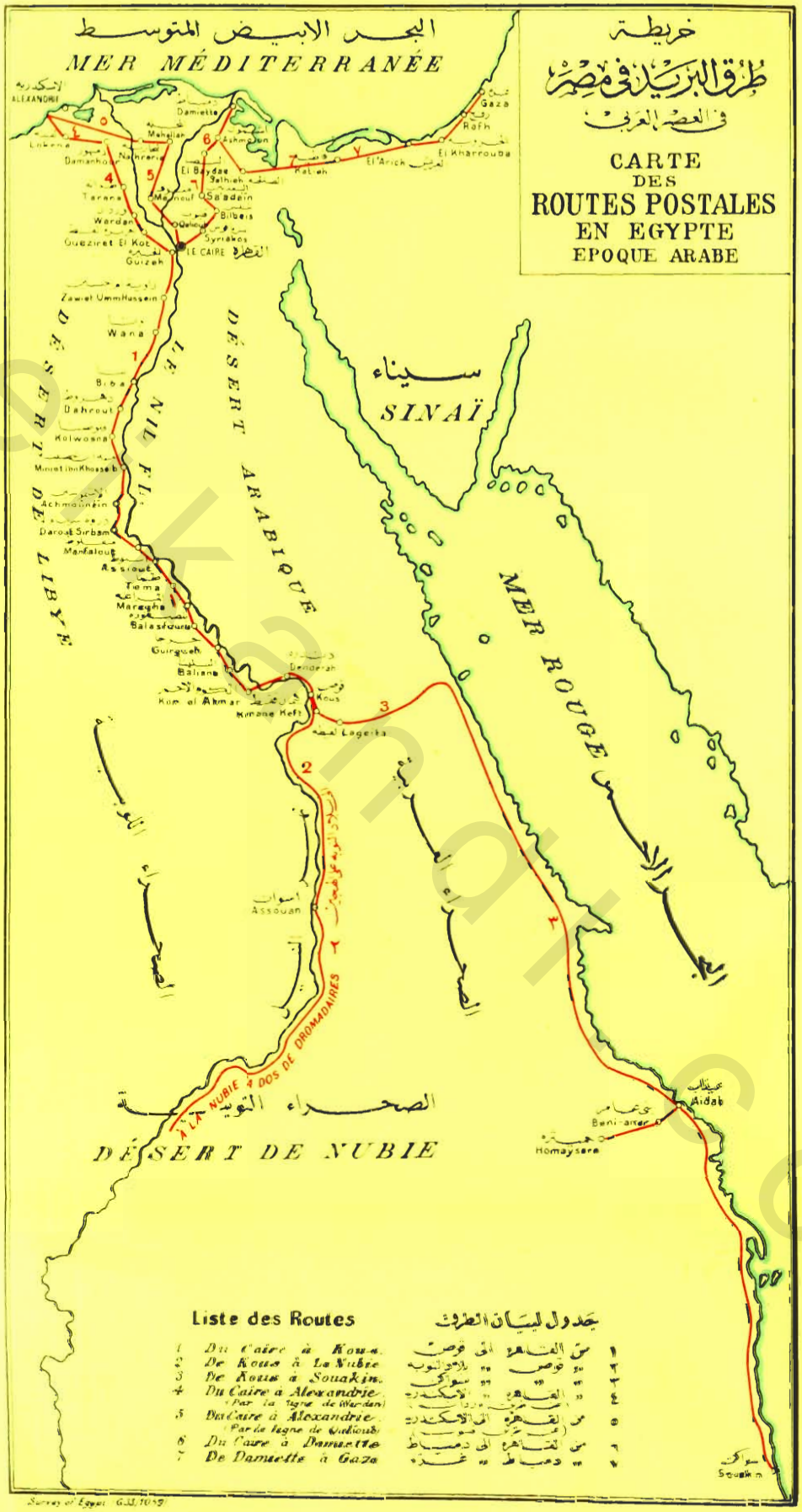
خريطة
طرق البريد في مصر
في العصر العربي
CARTE
DES
ROUTES POSTALES
EN EGYPTE
EPOQUE ARABE
البحر الابيض المتوسط
MER MÉDITERRANÉE
سيناء
SINAÏ
DÉSERT ARABIQUE
LE NIL FL.
DÉSERT DE LIBYE
MER ROUGE
البحر الاحمر
الصحراء الشرقية
الصحراء الغربية
الصحراء النوبية
DÉSERT DE NUBIE
A LA NUBIE A DOS DE DROMADAIRES
ALEXANDRIE
Damiette
Gaza
Rafh
El Kharrouba
El'Arich
Rafah
Ashkelon
El Baydae
Salhieh
Mahalla
Nahrerie
Damanhour
Lukena
Tarana
Mahsour
Sa'adein
Bilbeis
Wardan
Syriakos
Gueziret El Kot
LE CAIRE
Guizeh
Zawiet UmmHassein
Wana
Biba
Dahroute
Kolwosna
Minet ImKhasseb
Achmounein
Darout Sirbam
Manfalout
Assiout
Tema
Maraghe
Balasdzoura
Girgueh
Baliana
Kom el Akmar
Kimane Kefr
Lagerta
Dendérah
Kous
Assouan
Aidab
Beni-Amer
Homaysera
Suakin
Liste des Routes
جدول لبيان الطرق
1 Du Caire à Koua.
2 De Koua à La Nubie
3 De Koua à Souakin.
4 Du Caire à Alexandrie. (Par la ligne de Wardan)
5 Du Caire à Alexandrie. (Par la ligne de Gadioub)
6 Du Caire à Damiette
7 De Damiette à Gaza
Survey of Egypt G.S. 1057

obeikandl.com

البريد فى عصر المماليك

كان أهم خطوط البريد فى مصر، وهى جزء من الخلافة، الخط بين سوريا ومصر السفلى. فلما استقل الولاة بحكم مصر ألغوا بريد الخلفاء، وأنشأوا لأنفسهم بريدا خاصا كان ينقله السعاة المشاة. ثم استخدم السعاة الجمال إلى أن تولى السلطان الظاهر بيبرس حكم مصر فى سنة ١٢٦٠ م، فنظم نقل البريد بواسطة الخيل فى أنحاء سلطنته المترامية بين البحر الأبيض وصحراء العرب، وبين أعالى النيل وضفاف الفرات.

وكانت القاهرة ودمشق مركزين أساسيين، تفرّعت منهما سائر خطوط البريد: فخط بين القاهرة وأصوان على ضفاف النيل، وخطان قصيران بينهما وبين الاسكندرية ودمياط. على أن أهم الخطوط جميعا كان ذلك الطريق الحربى والبريدى بين القاهرة ودمشق مارا بغزة ونابلس، وكان هذا الخط يمتدّ من دمشق إلى حمص وحماه وحلب، حتى يصل إلى ضفاف الفرات حيث توجد قلعة "برته" التى كانت تعتبر مفتاح السلطنة.

وكان يتفرّع من المحطة الرابعة قبل "برته" طريق آخر يصل إلى قيصرية، ومن حمص كان يتفرع طريقان: (أحدهما) للقوافل يصل إلى بغداد وتدمر، (الآخر) يؤدى إلى قلعة رحاب على الفرات.

وعدا ذلك كانت توجد ثلاثة طرق : (أولها) على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين غزولة وطرابلس ، (الثانى) بين دمشق وعكا وصيدا وبيروت ، (الثالث) بين دمشق وبعلبك .

كذلك كان يوجد طريق يمتد بين دمشق ومكة ، وينتهى عند قلعة الكرك شرق البحر الميت ، ومن الكرك كان يتفرع طريق إلى حبرون وغزة .

وعلى طول هذه الطرق جميعا كانت توجد محطات على أبعاد معينة يستطيع فيها البريديون أن يستبدلوا جيادهم ، وكانت المسافة بين المحطتين المتعاقبتين لا تتجاوز أربعة فراسخ ، وتقارب المحطات بهذه الصفة كان يساعد الرسل على اجتياز المسافات البعيدة بسرعة عظيمة .

وكان فى كل محطة أوخان[1] خدم لإعداد الجياد والعناية بها ، وموظفون للاشراف على حركة العمل ومراقبة أعمال البريد ، وكان يطلق على الرسول اسم "البريدى" ، وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفاية والذكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ، وكانت لهم مكانة محترمة حتى لقد ظهرت فى البصرة عائلة يقال لها "عائلة البريدى" ، كان لها من النفوذ ما مكنها من أن تلعب بعض الأدوار السياسية الهامة . وكان كبير هذه العائلة مديرا للبريد فى البصرة .

(١) لم تكن المماليك أول من أنشأ "الخانات" ولكنهم عنوا بالإكثار منها ولا سيما فى الشام .

وكثيرا ما كان السلطان يثيب البريديين الأمناء و يغدق عليهم من النعم مايغدق عادة على كبار رجال الدولة .

وكان يدير أعمال البريد "ديوان الإنشاء" أو بيت المال الذى يتولاه الديوادار، وهذا الديوادار كان يلقب كذلك باسم أمير البريد، وكان من واجبه السهر على سرعة إرسال بريد السلطان و إذاعة أوامره ، كما كان من خصائصه أن يقدم للسلطان التقارير الخاصة بالأعمال الإدارية ، والأوراق التى يراد توقيعها ، والالتماسات التى يرجو أصحابها مقابلة السلطان .

وكان للديوادار مساعد يقال له "كاتب السر" يتولى بنفسه تصدير البريد ، و إعطاء قوائم السفر التى تجيز لحاملها الحصول من المحطات المختلفة على جياد بالعدد الذى يلائم مكانته وأهمية مأموريته .

وكان البريديون يحملون شارة خاصة ، هى لوحة من الفضة أو النحاس الأحمر فى حجم الكف ، منقوش على أحد وجهيها : " لا إله إلا الله محمد رسول الله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب فى مصر المحروسة ". وعلى وجهها الآخر : " عز لمولانا السلطان الملك ... الدنيا والدين ... سلطان الاسلام والمسلمين ... بن مولانا السلطان الشهيد ... الملك خلد الله ملكه" .

وكانت هذه اللوحة تشد إلى عنق البريدى بكوفية صفراء، ولعل هذه هى أول محاولة لتمييز البريديين عن غيرهم فى مصر .

وعنـــد وصول البريدى يذهب به الديوادار وكاتب السر إلى السلطان، فيجثو البريدى و يقبل الأرض بين يديه، و يتناول الديوادار منه الرسالة، و يقدّمها إلى السلطان الذى يفضها ، و يدفع بها إلى كاتب السر فيقرأها ، و يصدر السلطان أمره فى شأن ماجاء بهـا ، وكانت الرسائل الهامة التى يراد الاحتفاظ بسريتها تكتب عادةبا لاصطلاحات الجفرية .

ومما يستحق الذكر أن بريد السلطان بيبرس كان يصل إلى العاصمة مرتين فى الأسبوع بانتظام ، حاملا اليه رسائل الولاة والحكام من مختلف الولايات والمقاطعات ، وقد بلغ نظام البريد فى عهد هذا السلطان مبلغا من الدقة يستوجب الإعجاب ، وكان السلطان نفسه يعلق أهمية كبرى على سفر البريد فى مواعيده المقررة .

وقد ساعده انتظام البريد فى عهده على صدّ غارات التتر والمغول فى الوقت المناسب ، كما ساعده على تفقد الحالة فى مختلف أنحـاء السلطنة ، والإلمـام بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولاة والحكام .

حمام الزاجل [1]

تمتعت مصر فى أوائل القرن الثانى عشر ببريد جوى، استخدم فيه حمام الزاجل بنظام منقطع النظير من حيث الدقة والسرعة ، وقد استمر هذا البريد عدّة قرون ، وكان أول من نظمه لنقل رسائل الحكومة ، هو السلطان نور الدين الذى ولى الحكم على مصر والشام سنة ١١٤٦ م ، فأنشأ محطات لحمام الزاجل فى أهم طرق السلطنة ، ونظم نقل البريد بواسطة الحمام فى الخطوط التالية :

١ — بين القاهرة والاسكندرية .

٢ — بين القاهرة ودمياط .

٣ — بين القاهرة والوجه القبلى "قوص وأصوان وعيذاب" .

٤ — بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة وأورشليم .

٥ — بين دمشق وبرته على نهر الفرات .

٦ — بين برته وقيصرية .

(١) كان البحارة المصريون والاغريقيون فى عهد البطالسة يطلقون الحمام إيذانا باقترابهم من أرض الوطن ، ويقال إن أنطونيوس بعث برسالة مع حمامة فى سنة ٤٣ ق . م ، ويذهب مؤرخو العرب إلى أن الحمام استخدم لنقل الرسائل فى نهاية القرن الثامن الميلادى ، ولكن جاء فى بعض الكتب الصينية أنه استخدم فى الصين فى سنة ٦٧٣ م ، وأنه أدخل اليها بواسطة العرب أو الهنود ، وكان المصريون فى القرن التاسع يعنون بتربية حمام الزاجل ، وليس من المحقق أنهم استخدموه فى ذلك العهد لنقل الرسائل بانتظام .

٧ ــ بين حلب والرحبة على الفرات .

٨ ــ بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس .

٩ ــ بين غزة والكرك على البحر الميت .

١٠ ــ بين دمشق وبعلبك .

وهى نفس الخطوط التى انتظم فيها نقل البريد بواسطة الجياد فى ذلك العهد، غير أن الحمام كان يقطع المحطة فى ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الجواد ، أعنى سبعة أميال تقريبا . وكان فى كل محطة من محطات الحمام برج أو أكثر . يحفظ فيه الحمام من المحطتين السابقة واللاحقة ، لكى تحمل الحمامة رسالتها إلى المحطة التى جلبت منها . وعليه فقد كان لزاما أن تتبادل المحطات الحمام . وكانت عملية التبادل تتم باستخدام جياد السلطان لنقل الحمام بين المحطات ، تحت إشراف المراقبين الذين شيدت لهم فى المحطات الهامة أماكن للاستراحة .

ولنقل إحدى الرسائل من خط ما ، كان يتعين استخدام جميع الأبراج الواقعة على طول هذا الخط ، بمعنى أنه إذا أراد حاكم دمشق مثلا أن يبعث برسالة إلى القاهرة ، استخدم لهذا الغرض حمامة من حمام المحطة التالية وهى محطة "سنامين" ، فتصل إليها الحمامة بعد أربعين أو خمسين دقيقة . وفى سنامين تشد الرسالة إلى واحدة من حمام المحطة التالية . وهى محطة "تفاس" ولا تزال الرسالة تنتقل كذلك من تفاس الى بيسان ، ومن بيسان الى جنين ، فنابلس ، فأورشليم ، فقاطية ، فغزة ، فالورادة ، فالصالحية ، حتى تصل إلى بلبيس ، فترسل منها إلى القاهرة .

خريطة
خطوط حمام الزاجل
في عصر المماليك
CARTE DES LIGNES
DE
PIGEONS-VOYAGEURS
EPOQUE DES MAMELOUKS
آسيا الصغرى
ASIE MINEURE
برتة
Birtha
الجزيره
MESOPOTAMIE
حلب
Alep
الشام
SYRIE
الرحبه
El Rahbah
قبرص
CYPRUS
طرابلس
Tarabolos
بعلبك
Baalbek
بيروت
Beirouth
صيدا
Seideh
دمشق
DAMAS
البحر الابيض المتوسط
MER MÉDITERRANÉE
قيصريه
Kaisarieh
فلسطين
PALESTINE
القدس
JERUSALEM
بادية الشام
DÉSERT DE SYRIE
الاسكندريه
ALEXANDRIE
دمياط
Damiette
غزة
Gaza
الكرك
Karak
القاهرة
LE CAIRE
DÉSERT DE LIBYE
LE NIL FL.
DÉSERT ARABIQUE
سيناء
SINAÏ
MER ROUGE
HEDJAZ
Kous
اسوان
Assouan
بلاد النوبه
NUBIE
عيذاب
Aidab
Survey of Egypt (G 33/1059)

obeikandl.com

ولا شك أن تسلم الرسالة من الحمامة وشدّها إلى أخرى فى كل محطة كان يستغرق الكثير من الوقت . ولكن ضياع الوقت لم يكن يذكر فى شيء إلى جانب ما فى هذه الطريقة من المزايا العظيمة .

وأول هذه المزايا أن قصر المسافة بين المحطات لم يكن يحتم استخدام الحمام من نوع الزاجل الصميم ، وهو نوع كان ولا يزال نادرا وغالى الثمن . ولذلك استخدم الحمام العادى ، أضف إلى ذلك أن قصر المسافة من شأنه أن يقلل من الأخطار التى يستهدف لها الحمام ، وذلك مما يزيد الثقة والأمل فى وصول الرسائل .

وكان يوجد فضلا عن ذلك بريد مباشر بين عاصمة السلطنة وسائر الولايات . فاذا أراد السلطان مثلا أن يبعث برسالة من القاهرة إلى دمشق ، أطلق من أبراجه حمامة من حمام دمشق ، فتصل اليها الرسالة فى مرحلة واحدة بغير توقف . ولم يكن يستخدم لمثل هذه الأسفار البعيدة غير حمام الزاجل الصميم . والفارق بين هذا الحمام وغيره كالفارق بين أفراس الرهان وجياد النقل .

وكانت إدارة بريد الحمام منوطة بحكام الأقاليم . أما حمام السلطان فكانت له علامات تميزه كبصم منقاره ببصمات خاصة . أو قص ريشه بنظام معين . ولم يكن يستخدم فى نقل الرسائل غير الحمام الأزرق اللون . كما لم يكن يستخدم فى كتابة تلك الرسائل غير نوع خاص من الورق يقال له ورق بريد الحمام .

وكان الايجاز من أهم مميزات هذه الرسائل . فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة ، مما كانت تحفل به

الرسائل فى ذلك العهد ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مقتضبة ، كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة ، أو إلى ذيلها ، وجرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة ، أن تكتب الرسالة من صورتين ، ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترستها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى ، وجرت العادة كذلك ألا يطلق الحمام فى الجو المـاطر ، ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافى .

وكان تحت إمرة السلطان فى القاهرة وحدها ، عدد وافر من الحمام قدره المقريزى بألف وتسعمائة حمامة ، ولم يبالغ المقريزى حين قال إن الحمـام فى سائر الأبراج كان يفوق العدّ والحصر ، وكان فى مقدور السلطان ، وهو فى أية بقعة من بقاع السلطنة ، أن يتصل بسائر حكام الولايات بفضل الحمام الذى كان يرافق ركابه أينمـا ذهب .

ولقد حفل تاريخ ذلك العهد بطريف أخبار الحمام ، والأدوار التى استخدم فيها فى الحروب والسياسة والادارة ، وظلت أبراج الحمام فى مصر وسورية موضع العناية حتى غزا التتر سوريا سنة ١٤٠٢م ، فشتتوا الحمـام ودمروا أبراجه ، وأتلفوا محطـات البريد ومسالك البريديين . ولكن ممـا لاشك فيه أن هذه المحطات والمسالك أعيد إصلاحها وتنظيمها فى نهاية القرن الخامس عشر .